"الحقيقة" البراجماتية لدى وليم جيمس

*سلطنة فرحات سعد محمد**

ملخّص

انطلق وليم جيمس بالطريقة البراجماتية ذاتها إلى مناقشة موضوعات مثل الصدق، الحقيقة، النفع، النتائج العملية وغيرها، حيث أن اتجاه جيمس البراجماتي، هو اتجاه تجريبي يهتم بالمعطيات الحسية، والنتائج المحسوسة، كما أنه يرفض المبادئ الثابتة، والمطلقة فالفلسفة لديه، ليست مغلقة تعطي نتائج نهائية عن الطبيعة والأشياء.

اتسمت فلسفة جيمس بمعارضة النزعة المثالية، وانصرف تفكيره عن الأوليات والمثل، إلى النتائج والغايات، فقد أسس مذهباً عملياً قوامه فكرة التغيُّر، والتعدُّد، أما ما يحدد معنى الحقيقة هو ما يترتَّب عليها من نتائج. أي الصدق هو الشيء الوحيد النافع في طريقة تفكيرنا وهو الصواب لسلوكنا.

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في براجماتية جيمس ونظرته إلى الحقيقة، التي تُعد أحد أشهر وأهم النظريات في الفلسفة المعاصرة نظراً لانسجامها مع الواقع الأمريكي، والتحولات الاقتصادية في المجتمع المعاصر.

وهذا البحث للكشف عن طبيعة فهم جيمس للفلسفة البراجماتية ونظرية الحقيقة لديه، وطريقة تفكيره الخاصة التي ميزته عن غيره من البراجماتيين.

الكلمات الدالة: نظرية الحقيقة، الفلسفة البراجماتية، معنى الحقيقة، نظرية الصدق.

المقدمة

تُعد الحقيقة من أعقد المشكلات التي يتعين على الفلسفة بحثها. فهناك آراء متضاربة ومذاهب مختلفة في فهمها؛ لذا سنسلط الضوء على وجهة نظر وليم جيمس وكيفية تحقق الحقيقة لديه الذي يقر بأن الحق أمر يحدث للفكرة، أكثر من أن يكون خاصية ثابتة لها. فالحقيقة لديه ليست أمراً جامداً وغير قابلة للتغير بل هي في تطور وتغير مع الزمن.

فقد كانت الحقيقة، ولا تزال، تشغل أحد مراكز الصدارة في المذاهب الفلسفية، على مدى تطور الفكر البشري، كما هي موضوع اختلاف بين الفلاسفة، لم يكن وليم جيمس أول من جعل الحقيقة موضوعاً له، فللبراجماتية اتجاهات متعددة تتفق في أن المنفعة، والقيمة، والنجاح المعيار الوحيد للحقيقة.

ولذا، سأتناول، في هذا البحث مفهوم الحقيقة لدى وليم جيمس، حيث لا يعترف جيمس بوجود معارف أولية سابقة في العقل، وإنما المعرفة مصدرها التجربة، وعلى هذا الاعتبار؛ فالحقيقة لديه ليست مطلقة، وإنما هي نسبية متغيرة بتغير خبرات الإنسان بعد أن أخضع كل شيء للتجربة.

ومن هنا أصبح للإنسان مكانة متميزة في فلسفته، وأن كل شيء مسخر لخدمته، سنتعرف أيضاً على تركيز جيمس على النتائج العملية للأفكار ومدى مطابقته للواقع أكثر من مصادر ظهورها، وكيف جعل جيمس الحواس هي المرجع الأول الذي تقاس به صحة الأفكار؟ وحقيقتها، فإذا كانت الفكرة محسوسة، كانت صادقة وإلا فهي مجرد وهم.

سنحاول في هذه الدراسة أن نبين حقيقة أن التجربة والحواس لدى جيمس تؤدي بنا إلى المعارف الحقيقة، وبالتالي فهي مقياس المعارف الإنسانية. كما سنكشف عن معيار الصدق هل هو نظري تجريدي؟ أم عملي نفعي؟

* طالبة دكتوراة، قسم الفلسفة، كلية الآداب، الجامعة الأردنية.
تاريخ استلام البحث 2017/12/14 وتاريخ قبوله 2018/4/3.

© 2019 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

مشكلة البحث:

تعد فلسفة جيمس مغايرة لمن سبقه فقد جاءت على غير الفلسفات المثالية، تحمل الطابع التجريبي الذي أهمل الجانب الأخلاقي والديني.

فالإشكالية هنا، هي منطلقات جيمس التي لا تحدِّد ولا تعرف الصدق بصورة موضوعية، وهذا يعني أنها قد تحتوي على ما هو غير حقيقي، فهي تؤكد أن الحقيقة ليست غاية في ذاتها، وإنما هي مجرد وسيلة للوصول إلى الرضا والسرور والمنفعة.

أهمية البحث:

تنبع أهمية البحث في بيان أن الفلسفة البراجماتية، ترى أن هناك نظريات وأفكارا مرضية كانت سائدة آنذاك، وقد لا تصلح لأزمنة أخرى، فتكون بحاجة إلى نظريات وأفكار جديدة تواجه المشكلات المستجدة، وبذلك أخضعت الفلسفة البراجماتية الأفكار لتطويرات مختلفة تبعاً للمشكلات التي تواجه الإنسان.

أسئلة البحث:

1) كيف نظر وليم جيمس إلى الحقيقة؟
2) كيف ركز جيمس على النتائج العملية للأفكار، لا على مصدرها وكيفية ظهورها؟
3) هل قيمة الحقيقة في ذاتها لدى الفلسفة البراجماتية؟ أم فيما يمكن التحصل عليه؟

مصطلحات الدراسة:

التجريبية المتطرفة: هي الاسم الذي أطلقه وليم جيمس على تفسيره الخاص لهذه النظرة. فالمبادئ العامة للتجريبية تتعارض أساساً مع مبادئ الفلسفة العقلية، وقد نشأت التجريبية بوصفها ردّ فعل لمذاهب ديكارت، وسبينوزا، وليبنتز.

فثمة سؤالان رئيسيان هما موضوع خلاف بين العقليين والتجريبيين، يتعلق أولهما بالمدركات القبلية، أو (الأفكار الفطرية)، والثاني فيما يتعلق بالقضايا أو العبارات القبلية (أكريل، وآخرون، 1970).

الواحدية المحايدة: لوليم جيمس، ولرسل، ولم تلبث هذه اللفظة أن استخدمت فيما بعد استخداماً واسعاً، فأطلقت على أية نظرية تحاول تفسير الظواهر بردها إلى مبدأ واحد، ولم تعارض حينئذٍ الثنائية وحدها. بل عارضت التعددية كذلك (أكريل، وآخرون، 1970).

الوظيفة الأداتية: وتعود للمذهب الذاتي للفيلسوف الأمريكي جون ديوي، وأتباعه، وهي أداة للعمل ووسيلة للتجربة، وطبقاً لما تقول به الأداتية، فإن المفاهيم والقوانين العلمية، والنظريات هي مجرد أدوات أو وسائل أو مفاتيح إلى الموقف، أي "خطط عمل"، ويعترف مذهب الأداتية بالمعرفة كوظيفة حيوية لكائن عضوي (روزنتال وآخرون، 1997).

الوظيفة التمثيلية: وتعود للفيلسوف اليوناني (أفلاطون) (347–428 ق.م) وتُعد نظرية المثل الأساس والمنطلق لديه وهي تعبير عن نظرية عقلية، فالحقيقة موجودة في المثل حسب وجهة نظر أفلاطون وجودها مستقل عن الأشياء المحسوسة، وهي الصورة المجردة والحقائق الخالدة في عالم الآلهة وهي لا تفسد ثابتة أزلية(الحاج، 2000).

الحقيقة لدى وليم جيمس

تُعد مشكلة الحقيقة من أعقد المشكلات التي يتوجب على الفلسفة بحثها، وذلك لأنه ليست هناك حقائق كثيرة ومتعددة فحسب، بل لأن الناس نادراً ما يقصدون نفس الموضوع، عندما يصفونه بأنه حقيقة، إن الخلاف الأساسي يكمن في أن أحد الطرفين يستخدم معياراً معيناً للحقيقة عن المعيار الذي يستخدمه الآخر، فنجد مثلاً المذهب التجريبي ينظر إليها من ناحية العمل والنجاح في الواقع بينما ينظر إليها المذهب العقلي على أساس أنها أزلية وثابتة ومجردة في العالم الآخر. وبما أن الجزء المحوري الذي يدور عليه بحثنا هذا هو الحقيقة البراجماتية لدى جيمس وهي التي تكون حول العلاقة المسماة "حقيقة" التي تحصل بين فكرة، رأي، عقيدة، ثبت .... الخ؛ لذلك نقول حينئذ أن الحقيقة صفة أو خاصة لبعض أفكارنا. فهي تعني اتفاقها مع الواقع تماماً (بحسب مبدأ التطابق)، مثلما يعني الباطل اختلافها معه. والبراجماتيون، والعقليون على السواء يتقبلون هذا التفسير كأمر أكيد وثابت (سبيلا، 2009، ص 313).

يتوجب علينا هنا قبل الخوض في مفهوم الحقيقة لدى جيمس، الرجوع إلى تاريخها، كما لا يمكن حصرها كلها نظراً لسعتها الفلسفية والمذهبية، لكن سأقوم باختيار بعض النماذج

عنها، وهم أفلاطون، وليبنتز، وكانط، وذلك لاعتبار منهجي وهو تطرق جيمس لهم في سياق بنائه للمذهب البراجماتي، وتصوراته أحوال الحقيقة، ولنبدأ بأفلاطون الذي تعرض للانتقاد من قبل جيمس في كتابته.

جاءت الحقيقة عند أفلاطون على أساس تقسيم العالم إلى: (عالم المثل)، و(عالم الحس)، وبالتالي قسم المعرفة إلى معرفة صحيحة ومعرفة خاطئة. بعبارة أخرى: إن العلم فيه ما هو صحيح، وما هو غير صحيح. إنّ مصدر المعرفة بالنسبة للرأي الشائع هو – أولاً – إدراك الحس، وثانياً: التصور الصحيح؛ فالإدراك الحسي لا يتحصل بالعلم الحقيقي؛ لأنه "يُصوَّرُ لنا نفس الشيء تصورات متناقضة ومتضاربة، فيصور الشيء الواحد بارداً وحاراً، رطباً ويابساً، وهكذا نجد أن الحواس تخدعنا خداعاً كبيراً" (بدوي، 1979، ص 131).

مما سبق يتضح أن نظرية الصور لدى افلاطون لها طريقان: طريق المعرفة، وطريق الوجود. فالأولى: ترتبط بالتصور الصحيح، والعلم الحقيقي يقول: "إنَّ التصور الصحيح هي خطوة وُسطى بين العلم الحقيقي، وبين اللاّوجود، فكل ما يُعلم، فهو موجود، وكل ما لا يعلم؛ فهو غير موجود، فالوجود الخالص معلوم، واللّاوجود غير معلوم" (بدوي، 1979، ص 140).

خلاصة ما سبق أن الحقيقة الأفلاطونية تتعلَّق بنظرية الصور التي تقوم على العلم الحقيقي من حيث المعرفة والوجود الحقيقي من حيث نظرية الوجود، وكلاهما يمتزج بالآخر؛ ليقوم الواحد منهما على الآخر ((بدوي، 1979، ص 148).

وهذا يعني: أنَّ أفلاطون يميزُ بين العلم والتصوّر؛ لأن العلم والحقيقة عند أفلاطون يتجسّد في الإدراك اليقيني المطابق للواقع، وبالتالي فإن العلم لا يتحصَّلُ إلا بالتعليم. أما التصوّر؛ فيُمكنُ أن يصل إليه الإنسان عن طريق الإقناع (بدوي، 1979، ص 132).

أما ليبنتز يؤسس الحقيقة على المنطق والاستدلال عن طريق النظرية الجوهرية، فالجوهر لا نوافذ له، إذ إنَّ كُلَّ جوهر فرد يعكس العالم؛ لأنَّ العالم يؤثر فيه، بل لأنَّ الله قد وهبه طبيعة تنتج هذه السمة، سمة التناغم في هذا الكون والتفاعل (راسل، 1977، ص 131).

فقد جعل ليبنتز الإرادة منزلة كبيرة في مذهبه عن طريق صياغة منطقية لمبدأ السبب الكافي الذي اعتمده في تصوره للوجود والماهية. فقد تصور أنَّ العالم الذي نعيش فيه له عوالم ممكنة عديدة، فعالم الإمكان: "إنْ لم يتناقض مع قوانين المنطق، وهناك عدد لا متناهي من العوالم الممكنة يتأملها الله جميعها قبل خلق العالم الراهن، ولمَّا كان الله خيراً؛ فقد خلق أفضل العوامل الممكنة، وقد اعتبر الأفضل هو ما يرجح فيه الخير والشر" (راسل، 1977، ص 149).

فالطريق إلى المعرفة عند ليبنتز، هو العقل بما يحتويه من أفكار كامنة فيه بالقوة، والحس الذي يخرج عن طريق الإثارات الحسية تلك الأفكار الكامنة في العقل من القوة إلى الفعل (محمد، 1997، ص 157).

فالحقائق لدى ليبنتز نوعان: الأول، حقائق عرضية، تتناول ماضي العالم الخارجي من موجودات وتعتمد على الحس والتجربة، ولا تحتاج إلى دليل قبلي، بل يكفي في بيان أسبابها دليل بعدي يقوم على مبدأ السبب الكافي، الذي يوضح ما بينها من ارتباطات وعلاقات. والثاني، حقائق ضرورية تنبع من أنفسنا، وتشير إلى اليقين المطلق، ولا تحتاج إلى أكثر من دليل قبلي لا يعتمد على التجربة والعالم الخارجي (محمد، 1997، ص 155).

ليست كل الحقائق ضرورية ولا أبدية. فلا بد في رأي ليبنتز من التمييز بين حقائق العقل الضرورية الخالدة وحقائق الوقائع العرضية الحادثة. فالأولى هي التي لا يمكن تصور ضدها، وإلا كانت متناقضة مع نفسها ومنها مبادئ الرياضيات والمنطق. أما الثاني فيمكن التصور ضدها، ومنها الحقائق التاريخية وقوانين الفيزياء (مثل قانون الحركة) والقدرة على تصوّر نقيض الحقيقة أو عدم تصوره هو المعيار المنطقي الذي اعتمد عليه ليبنتز في التمييز بين حقائق العقل وحقائق الواقع (ليبنتز، 1978، ص41).

فالمناداة العاقلة والشاعرة التي تميّز النفس الناطقة تتوصّل إلى الحقيقة السامية العليا، وإلى الحق الأعلى (أي الله) كما تتوصّل إلى معرفة الحقائق الضرورية والأبدية (محمد، 1997، ص 156). وهكذا يوفق ليبنتز في معرفته بين المعرفة العقلية والحسية معاً.

أما كانط وهو ذو أهمية كبرى على صعيد تاريخ العلم؛ فهو الفيلسوف الذي آثار النزعة الإنسانية في عصر التنوير (محمد،

1997، ص 204)، وهو الذي تأثر بالفيلسوف دافيد هيوم، حيث قال: "هو الذي أنقذني من سبات الدوغمائية" (الانغلاق) (بدوي، 1977، ص 147) ، ممَّا أثار في نفسه وفكره نزعة الشك والنقد، وهو شعور دفعه إلى إعادة النظر في تاريخ العقل والفلسفة وشروط المعرفة، حيث انتقل من الموضوع إلى الذات، وبهذا سطر لنفسه مشروع العقل ونقد أدواته ووسائله وطريقة إنتاجه للمعرفة. فقد هز العالم فكان معظم الفلاسفة المحترفين في أوروبا الغربية، وإنجلترا وأمريكا من تلاميذه الفعليين (ستيس، 1998، ص 217).

يرى كانط أن الواقع الحقيقي لا يمكن لنا أن نعرفه، فطبيعة أذهاننا نفسها تمنعنا من الحصول على المعرفة، فتركيبتنا الذهنية تجعلنا ندرك الأشياء على أنها مكانية وزمانية، واقعة في شراك شبكة من الأسباب والنتائج، والأفعال وردود الأفعال. والعالم الحقيقي لا يمكن أن يكون شيئاً من هذا القبيل بل أننا لا نستطيع أن نعرف عنه شيئاً على الإطلاق (ستيس، 1998، ص 225).

نستطيع فقط أن نقول أنه لا يوجد في زمان أو مكان، وأنَّ الأشياء في ذاتها ليست وحدات، ولا كثرة، ولا ضروب من الجملة، أو الأسباب والنتائج. بل نستطيع أن نعرف ما لا تكونه لكننا لا نستطيع أن نعرف ما تكون عليه (ستيس، 1998، ص 225).

يقسم كانط العالم إلى عالمين، فهناك عالم الزمان والمكان الذي هو عالم الظاهر وعالم الأشياء في ذاتها وهو العالم الحقيقي لديه ويرى أنه ليس في استطاعتنا أن نعرف أو نبرهن على أي شيء في هذا العالم الأخير، وإنما في استطاعتنا فحسب أن نسلم أنه العالم الذي تشير إليه حدوسنا الدينية، والذي تصدق عليه هذه الحدوس (ستيس، 1998، ص 226).

أما عالم الزمان والمكان، عالم الظاهر، عالم التفكير الطبيعي والعلمي فسوف يكون صادقاً صدقاً تاماً، وكذلك سيكون عالم الحقيقة الذي يقع خارج الزمان والمكان، وهو عالم التفكير الديني صادقاً صدقاً تاماً. ولا يمكن أن تتم البرهنة على ذلك عن طريق العقل، لأن العقل نفسه جزء من البنية الذهنية التي تؤدي بنا إلى الظاهر، لا إلى الحقيقة، فالعقل، ببساطة، سواء أكان يقوم بالتأييد أم التفنيد، فهو في الحالتين لا يستخدم في ميدان العالم الحقيقي (ستيس، 1998، ص 227).

لقد وضع كانط حدوداً للعقل من أجل بناء الحقيقة، التي تتأسس على مقولات قبلية للذات (راسل، 1977، ص 326) أما الأشياء في ذاتها فلن نعرفها مطلقاً نفترض وجودها ولا نستطيع أن نحيط بها (بدوي، 1977، ص 168).

فالمعرفة الحسية لدى كانط يمكن أن تكون واضحة جداً، بينما يمكن لبعض أنواع المعرفة العقلية أن تكون مختلطة أو غامضة ومثاله على ذلك: الهندسة فهي واضحة جداً، وهي تقوم على معرفة حسية، بينما الميتافيزيقا غامضة مختلطة رغم أنها تقوم على معرفة عقلية (بدوي، 1977، ص 158).

كان لكانط تأثير واضح في البراجماتية ما بين أن للعقل وظيفة مزدوجة، فهناك العقل النقدي بالمعنى الصحيح، والعقل النظري بالمعنى الصحيح، والعقل النظري بالمعنى المحض، الأول يدرك معطيات التجربة، والثاني يدرك طبيعة العلاقات بين الحوادث بهدف الوصول إلى القانون، وهناك أيضاً العقل العملي بالمعنى الصحيح الذي يهدف إلى إدراك الغاية من الفعل (فال، 1997، ص 273).

كذلك نقد كانط للميتافيزيقا التأملية، حيث أكد أن الأفكار لا يمكن أن تشير إلى موضوعات تقع خارج نطاق التجربة لذا فإن البراجماتية، كما يرى جان فال: "اتبعت الطريق الذي رسمه "كانط" عندما قال أننا نصنع معرفتنا وإن كان البراجماتيون قد جعلوا لفكرة صنع المعرفة، أو خلقها، معنى بعيداً عن المعنى الذي حدده كانط بحيث يحسن الفصل بين المعنيين" (فال، 1997، ص 273).

لقد كان الفلاسفة القدامى يعتقدون أن هناك عالماً معقولاً، فوق الزمان والمكان، فيه توجد كل الحقائق الممكنة، فكانت القضايا الإنسانية في نظرهم صادقة بقدر ما تجيء مطابقة لتلك الحقائق الأزلية ولما جاء المحدثون أنزلوا الحقيقة من السماء إلى الأرض، ولكنهم ظلوا يرون في الحقيقة شيئاً سابقاً على أحكامنا وقضايانا (إبراهيم، 1968، ص 36).

تُعد الحقيقة قضية جوهرية في الدراسات الفلسفية ذات بعد نظري بحت، فإذا كانت الحقيقة واحدة من المسائل الهامة في الفلسفة – عبر تاريخها الطويل – فهي بالنسبة إلى البراجماتية – موضوعها الأهم (جديدي، 2010، ص 46).

لعل فكرة كانط مثل الأرضية الفكرية التي انبثقت منها البراجماتية. علاوة على ذلك فقد صارت الفلك الذي تدور حوله

مواقف الفلاسفة البراجماتيين الكلاسيكيين والجدد في مجالات المنطق والمعرفة والأخلاق والسياسة والتربية والفن والعلم والخبرة وغيرها من المجالات التي امتدت إليها الرؤية المنهجية البراجماتية (جديدي، 2010، ص 47).

مهد بيرس الطريق للبحث الذي لا ينتهي في سبيل الوصول إلى الحقيقة. وهو في عمله هذا لا يدعي العصمة، بل يعترف بأن فرص الخطأ كثيرة جداً، ولكنه يضع قاعدة للتخلص من الأخطاء وطرحها جانباً، وهي قاعدة التجربة والامتحان.

وبواسطة هذه القاعدة الأساسية تتجمع الحقائق (الحقيقة) الواحدة تلو الأخرى، وبواسطتها يتمكن الإنسان من تكييف محيطه ليتوافق مع متطلباته، وبالتالي لكي يحيا حياة سعيدة، مرتكزة إلى طريقة البحث العلمية التي مكنت الإنسان من سبرغور الطبيعة بصورة إيجابية صحيحة (وسب، 1960، ص 327).

لقد أولى جيمس اهتماماً لا نظير له بالنظرية البراجماتية للحقيقة في المقال الموسوم "عن وظيفة الإدراك" الذي نشره في عام (1885م)، يقول جيمس: "فهو قاع ولباب وأصل كل براجماتيتي"، كم أعطاه مركز الصدارة في مجلده "معنى الحقيقة"، وترجع الأهمية التاريخية لهذا المقال إلى حقائق عديدة فهو يشير إلى التطابق الحاسم والنهائي "للحق" بنجاح الأفكار، فالنظرية البراجماتية للحقيقة، تقضي بأن الحقيقة تعزى إلى الأفكار وليس إلى الواقع، وأنها تلحق بالأفكار بنسبة ما تبرهن الأفكار على فائدتها ونفعها للغرض الذي استحضرت من أجله (بيري، 2013، ص411).

وهنا جنح جيمس إلى الاعتراف بأنه إذا لم يستطع المفهوم أن يترجم إلى خبرة أو ممارسة عملية، فهو عديم المعنى (بيري، 2013، ص 408). ولهذا كانت الحقيقة هي محور التفكير لدى جيمس، من حيث إنّها مقياس الأفكار، والمزواجة بين الحقيقة والواقع (مشروحي، 2004، ص 125).

من هنا انطلق جيمس في طرح أسئلته: يقول: "إذا سلمنا بأن فكرة أو معتقداً صحيح، فما هو الفرق الملموس الذي يحدثه كونه صحيحاً في الحياة الواقعية لأي امرئ؟ كيف تتحقق الحقيقة؟ ما هي الخبرات التي ستكون مختلفة عن تلك التي تحدث إذا كان المعتقد زائفاً وباطلاً؟ وباختصار ما هي القيمة الفورية، للحق، اختبارياً وتجريبياً وممارسةً؟" (جيمس، 1965، ص 236).

حيث إن الحقيقة لم تعد مطلقة – كما كانت عليه في السابق – بل أصبح مدى صدقها من عدمه راجعاً إلى التحقق منها على ضوء نتائجها العملية، وفي هذا يذهب جيمس إلى أنه كلما تصبح مثل تلك الحقيقة الإضافية مرتبطة عملياً بأحد مطالبنا العاجلة فإنها تمر لتؤدي عملها في العالم ويصبح اعتقادنا بها نشيطاً (عبدالحفيظ، 2006، ص 86).

ارتبط مفهوم الحقيقة لدى جيمس بالمنهج العملي التجريبي الذي يؤمن بالتغير والتجدد، وبناء عليه يقدم خدمات للإنسانية لم يعد في وسع أحد أن ينكرها، وذلك خلافاً لأصحاب المذهب العقلي الذي لم يجنِ أتباعه سوى التشتُّت والاختلاف – في نظر جيمس – مما يترتب عليه من إهمال للإنسان وواقعه (عبدالحفيظ، 2006، ص 87). انعكس ذلك بالطبع على مفهوم الحقيقة، فإن مدى صدقها مرتبط بنتائجها الذي يعود بالنفع على الإنسان (عبدالحفيظ، 2006، ص 87).

كان أساس فلسفة جيمس إنكار الحقائق القبلية، والتركيز على أن الإنسان هو مصدر الحكم على الأشياء بالصدق أو الكذب، وأنه ليس هناك حقائق ثابتة، ولذلك ثار على المذاهب العقلية التقليدية.

يشرح لنا جيمس الأسباب التي أدت به إلى ترك البحث في المشكلات بحثاً نظرياً مجرداً تأملياً والاتجاه في بحثها عملياً. كتب مقالاً شهرياً بعنوان: (ميل الإنسان إلى التفكير الفلسفي) وهو إحدى فصول (إرادة الاعتقاد). انتهى فيه إلى أن الأبحاث النظرية ناقصة بالضرورة وأن الحلول الصادقة للمشاكل الفلسفية هي المرتبطة بالسلوك العلمي والمرضية لمطالب الإنسان (زيدان، 2005، ص 1431).

من هذه العلامة البسيطة تأخذ البراجماتية فكرتها العامة عن الحقيقة لدى جيمس كشيء يرتبط بالضرورة والحتم بالطريقة التي تفضي بها لحظة من لحظات خبرتنا إلى اللحظات الأخرى التي سيكون من المجدي أن تفضي إليها (جيمس، 1965، ص 242، 247).

يقول جيمس في وسعك أن تقول عنها عندئذ "إنها مفيدة لأنها صحيحة" أو "إنها صحيحة لأنها مفيدة" كلتا العبارتين تعنيان بالضبط الشيء نفسه، ألا وهو أن لدينا هنا فكرة تحققت، ويمكن تحقيقها وإقامة الدليل عليها (جيمس، 1965، ص 242).

يجيب جيمس قائلاً: "أن الأفكار الصحيحة هي تلك التي يتسنى لنا أن نتمثلها، وندفع بمشروعيتها وصدقها، ونعززها، ونوثقها، ونؤيدها، ونحققها. بأن نقيم عليها الدليل. والأفكار الباطلة هي تلك التي لا يتسنى لنا ذلك بالنسبة لها" (جيمس، 1965، ص 237).

هذا هو الفرق العملي الذي تحدثه لنا حيازة أفكار صحيحة. وهذا هو المبحث الذي يتعين عليَّ الدفاع عنه. لأن صحة الفكرة ليست صفة أو خاصية راكدة كاسدة متوقفة عن التقدُّم أو النماء، ووليدة ذاتها (جيمس، 1965، ص 237).

وإنما قيمة الفكرة في انطباقها على حقائق الموجودات، وفي الأعمال التي تؤدي إليها هذه الفكرة، وفي التغيرات التي تنتجها في الدنيا المحيطة بنا. ولا يهم في هذه الحالة حقائق الأشياء ذاتها، لأننا نستطيع أن نفرض هذه الحقائق كيفما اتفق، فما جميع هذه العلامات إلا معالم تقود العقل إلى التصرف والسلوك (فام، 1998، ص 143).

اختلفت نظرة الناس والفلاسفة للحقيقة باختلاف شخصياتهم ورؤيتهم للأمور، أما لدى وليم جيمس فالحقيقة ليس كشفاً عن حقيقة واقعية، وليست واقعة مستقلة عن ذهن العارف، أو كامنة فيه، لكنها شيء يصنعه الإنسان يربط بين الفكر والسلوك، والصدق، والنفع، والمعنى، والنتائج، وتحقيق الرضى، فلا قيمة للفكرة إلا وفقاً لنتائجها العملية، ومدى شعورنا بالرضى عنها... صدق الفكرة هو النفع المتحقق منها، تحدد التجربة مصداقية الفكرة، يفتح الصدق المجال لحرية الإنسان وممارسة إرادته، يقول جيمس أيضاً أنه لا يوجد ما هو صادق بالضرورة أو محدد منذ الأزل (عبدالغفور، 2014، ص 21).

نظرية الصدق

تعنى البراجماتية "بنظرية في الصدق" الذي نتوصل إليه من تحليل وتوضيح المعاني والمعتقدات. ومعنى الصدق لديها مرتبط بالنجاح العملي، أو بما يترجم إلى سلوك ناجح (إسلام، 1980، ص 90). وفي هذا الصدد يقول جيمس: "أن الأفكار تصبح صادقة بقدر ما تساعدنا على أن نربطها بأجزاء أخرى من خبرتنا بطريقة تؤدي إلى سلوك ناجح في الحياة" (جيمس، 1965، ص 840).

وذلك طالما أن كل فكرة، وكذا كل لفظ نسمي به تلك الفكرة، لا بد وأن يكون لها أولاً قيمة فورية في الواقع الخارجي أشبه بقيمة أوراق النقد. وهو في هذا يقول: "ينبغي عليك أن تستخرج من كل لفظ، قيمته الفورية الفعلية The Practical Cash-Value، وأن تضعه موضوع العمل في نطاق مجرى خبرتك" (جيمس، 1965، ص 838). وهكذا تكون قيمة الفكرة مرتبطة بنجاح السلوك الذي يؤديه الإنسان بناء على اعتقاده في صحتها.

كما يرتبط الصدق بالنفع، لدى البراجماتية، فالصدق هو النافع والمفيد في طريقة تفكيرنا تماماً، كما أن الصواب هو المفيد الوحيد في طريقة سلوكنا (جيمس، 2008، ص 10).

لا بد أن يكون للفكرة قيمة فورية ونتيجة عملية، ولا يتم الحكم عليها إلا إذا أدَّت إلى نتيجة عملية في الواقع. ليست حقيقتها صفة ثابتة فيها أو وراثية، إذ يحدث الصدق للفكرة، ولا تصبح صادقة إلا بواسطة الحوادث، فتكون حقيقتها حدثاً وعملية تحقق لها، فيمثل تحققها صدقها (جيمس، 2008، ص 10).

فالمنفعة العملية لدى جيمس هي مقياس الحقيقة: "فالفكرة صادقة عندما تكون مفيدة. ومعنى ذلك أن النفع والضرر هما اللذان يحددان الأخذ بفكرة ما أو رفضها" (جيمس، 2008، ص 207).

قد أصبحت نظرية الحقيقة لدى جيمس جوهر الفلسفة العملية، وسادت كحركة واضحة المعالم، جعلت من العمل مبدأ مطلقاً تدرس الواقع لا المجرد.

يتساءل جيمس تساؤله المألوف: "أفرض أن فكرة ما أو اعتقاداً ما صادق، فما الاختلاف المحسوس الذي يتركه صدقه في الحياة الراهنة لإنسان ما؟ وكيف نحقق هذا الصدق؟ وما الخبرات التي قد تختلف عن تلك التي نحصل عليها في حالة كذب الاعتقاد؟ وباختصار ما القيمة الفورية التعاملية للصدق بألفاظ تجريبية؟" (جيمس، 1965، ص 127).

يجيب جيمس قائلاً: بأن الأفكار الصادقة هي ما يمكننا أن نتمثله، ونثبت صحته، وندعمه، ثم نحققه. والأفكار الكاذبة هي ما لا يمكننا تمثله ولا إثبات صحته ولا تدعيمه وتحقيقه. ذلك هو الفرق العملي الذي تمنحه إيانا الأفكار الصادقة، ولذلك فهو معنى الصدق، إذ أنه كل ما نعرفه عنه (زيدان، 2005، ص 197).

"فالصدق" يمثل على المدى البعيد ما هو نافع في طريقة تفكيرنا، تماماً كما يمثل "الخير" النفع الذي تحققه من سلوكنا

(جيمس، 2008، ص 155).

لعل هذا أكثر ما اتهم به البراجماتيون من قبل (مارسيل هيبري) في مقال نشره في المجلة الفلسفية، وهو التركيز على المنافع التي جعلتها البراجماتية في المرتبة الأولى، وحذفت المصدر الموضوعي الذي استحدثت منه هذه المنافع وجودها (جيمس، 2008، ص 155).

يرد جيمس على ذلك فيقول في الواقع حين قلت من قبل "إن الحقيقة تعني الاتفاق مع الواقع"، وأكدت على أن المنفعة الحقيقة لأي رأي تتمثل في اتفاقه مع باقي الحقائق المعترف بها، لم أكن أقصد أي تفسير ذاتي أو قراءة ذاتية خاصة للمعنى الذي أقصده. كان عقلي مشغولاً بمفهوم العلاقة الموضوعية التي لم أحلم إطلاقاً أن من يسمعني لن يدركها (جيمس، 2008، ص 156).

كان اتهامي بإنكار الوقائع الخارجية حين تحدثت عن ما تحققه الأفكار من شعور بالرضا آخر ما يمكن تصوره (جيمس، 2008، ص 156). هنا تركز النقد بالتحديد في ارتباط فلسفة جيمس بميوله الذاتية والفردية، علاوة على تناقضه مع المنهج التجريبي الذي دافع عنه (عبدالحفيظ، 2006، ص 93).

يرد جيمس على هذا الاعتراض، وانحصر الرد في فكرتين هما:

1) تأكيد أنه واقعي من الناحية المعرفية.
2) تمسكه بالأساس الحسي الجزئي لعلاقة الصدق (زيدان، 2005، ص 70).

لم ينكر جيمس الواقعية بل يصرح بأن الفكرة صادقة لو قادتك إلى إحساس، وإنه لا معنى لصدق فكرة لم تقدك إلى موضوعها الجزئي المحدد. فإذا وصلت إلى هذا الموضوع تستطيع أن تشعر برضاك عن الفكرة وقبولك لها واقتناعك بها. وإذن فالرضا والقول ليسا شيئاً ذاتياً عاطفياً كما زعم الزاعمون وإنما لا يتأتيان بغير الوصول إلى جوهر حسي محدد موضوعي (زيدان، 2005، ص 70).

يقول جيمس ويمثل هذا الشيء، موضوع الإنسان، فما دامت الوقائع التي نستطيع التحدث عنها هي الموضوعات التي نعتقد فيها، فإن البراجماتية ترى أينما نقول كلمة "واقع" نعني في المقام الأول ما يعتبره المرء ذاته، واقعاً بالنسبة إليه. يكون الواقع أحياناً موضوعاً حسياً أو فكرياً، فإذا كانت هناك فكرة عن أن هذا الباب يؤدي إلى مكان يمكن شراء كوب من البيرة فيه، وفتح الإنسان الباب واستطاع احتساء البيرة، فإنه يعتبر هذه الفكرة صادقة (جيمس، 2008، ص 157).

كذلك يرى قد تكون الفكرة ذات علاقة مجردة، وإذا كانت الفكرة تتحدث عن علاقة مجردة بين المثلث وأضلاعه فإن هذه العلاقة تعد واقعية تماماً مثل قدح البيرة، وإذا ما أدى التفكير فيها إلى رسم خطوط خارجية ومقارنة الأشكال وإدراك التساوي فإنه يمكن القول إن المرء يرى العلاقة مباشرة، ويشعر بها مثل الشعور بمذاق البيرة، ويعتبرها فكرة صادقة (جيمس، 2008، ص 157).

وهنا يصل جيمس – كما أشرنا سابقاً – إلى أن الفكرة الصادقة هي التي بالطبع نستطيع التحقق منها مباشرة، ولكن هناك من الأفكار ما لا نستطيع التحقق منها بشكل مباشر، ومع ذلك نثق في صدقها بما لا يدع مجالاً للشك، ولهذا يعتبرها جيمس أنها صادقة، وفي هذا يؤكِّد على أننا نستطيع أن نمضي بدون مشاهدة عيان تماماً كما نفترض هنا أن اليابان موجودة بدون الذهاب إلى هناك (عبدالحفيظ، 2006، ص 90).

يقول جيمس: "أننا نتفق على الإطلاق في الإقرار بسمو واستعلاء واستشراف الموضوع على المحمول عليه بشرط – أن يكون الموضوع قابلاً للممارسة والخبرة – في علاقة الحقيقة" (جيمس، 1965، ص 364). وهو يقصد بذلك ديوي وشيلر يقول: "أنهما كالبراجماتين أكثر تطرفاً يرفضان مثل هذا التنازل أو التسليم من جانبهما" (جيمس، 1965، ص 364).

أما بخصوص تناقض فلسفته مع المنهج التجريبي، يحاول جيمس ملتزم بقدر المستطاع بالحقيقة بشكل لا يتناقض مع المنهج العلمي التجريبي، فقد استطاع أن يحذو حذو ذلك المنهج في تناوله للحقيقة (الشنيطي، 1981، ص 95).

فالعلم من حيث نظرته إلى الحقيقة هو براجماتي بطبيعته فقد كان رواد البراجماتية وعلى راسهم بيرس ذوي اتجاهات علمية، فقد اهتم بالكيمياء والرياضيات والمنطق وجيمس انصرف إلى الطب وعلم النفس، وبهذا الصدد يقول: "البراجماتية تتوخى أن تدخل في الفلسفة المنهج العلمي التجريبي الذي ثبت فاعليته لحرصه على التحقق الفعلي من كل نظرية" (جيمس، 1965، ص 366).

حيث أن "إمكانية التحقق" لا تقل عن "عملية التحقق" ويوجد

بمجرد اكتمال عملية الحكم بصدق إحدى الحالات ملايين الحالات التي لا زالت في طور التكوين؛ تقودنا تجاه التحقُّق المباشر وإلى الإحاطة بالموضوع الذي تصوره؛ فإذا ما تم كل شيء في انسجام وأصبح التحقُّق ممكناً يتم إغفالها أو استبدالها بالوقائع والحوادث (جيمس، 2008، ص 17).

فجيمس يرى أن الوصول إلى حلول للمشكلات النظرية لا يتم عن طريق تحليلها تحليلاً جدلياً أو عن افتراض فروض قبلية مستقلة عن التجربة بل يكون حلّ المشكلات بمتابعة آثارها المحددة ونتائجها الدقيقة بحيث لو لم يكن للمشكلة نتيجة أو لحلها أثر في الحياة (النظرية والعملية) فالمشكلة إذاً باطلة (زيدان، 2005، ص 45).

يقول جيمس: "أسمي الفكرة صادقة حين أبدأ بتحقيقها تحقيقاً تجريبياً، فإذا ما انتهيت من التحقيق وتأكدت من سلامة الفكرة سميتها نافعة. إن الصدق أعلى مراحل التحقيق، والفائدة أعلى مراحل الصدق" (جيمس، 1965، ص 203). وبالتالي ربط جيمس بين صدق الفكرة وتحقيقها بالنتائج وذلك يتضح لنا أكثر عن طريق ما يقوم به الفرد من سلوك معين على الواقع باعتقاد وليم جيمس.

يخلص جيمس إلى أن المحك الوحيد للحقيقة المحتملة "بمعنى الصدق العقلي" هو ما يؤدي وظيفته على أحسن وجه في سبيل قيادتنا والأخذ بيدنا، وما يلائم كل جزء من الحياة، ويجمع ويمزج مطالب الحياة، ولا يغفل منها شيئاً. ولكي يثبت جيمس مجال صدق الفكرة طبق ذلك على الأفكار اللاهوتية – كما أسلفنا الذكر – فالأفكار اللاهوتية لدى جيمس إذا استطاعت أن تفعل ذلك، فقد تسنى لفكرة الله، بصفة خاصة أن تنجح في أدائها، فكيف يمكن للبراجماتية بأي حال من الأحوال أن تجحد وجود الله (جيمس، 1965، ص 106).

وللتأكيد على ذلك يقول جيمس: "إنها لن تجد أي معنى أو مغزى في أن تدمغ بوصمة "غير حقيقي" فكرة نجحت كل هذا النجاح براجماتياً. أن نوع آخر من الحقيقة يمكن أن يوجد بالنسبة إليها، أكثر من كل هذا الاتفاق الملموس والمحسوس" (جيمس، 1965، ص 106، 107).

فقد عالج جيمس الصدق علاج براجماتي بحت، فجاءت المعالجة مصبوغة بالصبغة الحسية الجزئية مستندة إلى المعنى والسلوك، وجعل السلوك المطابق لواقع التجربة معياراً للصدق (زيدان، 2005، ص 66).

وخلاصة القول: أن الصدق ليس شيئاً جاهزاً موجوداً أمامنا هناك، أي في العالم الخارجي. الصدق على العكس تماماً، شيء يحدثه الإنسان، وهو توافق ناجح بين أغراضه وبين العالم. فهو ليس كشفاً مباشراً لحقيقة واقعية معطاة مستقلة عن ذهن الفرد، الصدق يكون علاقة بين أفكارنا البشرية وبقية تجربتنا (رايت، 2010، ص 494).

نظرية التطابق والاتساق

تعرف نظريتا التطابق والاتساق، على أنهما نظريتان للتعبير عن معنى كلمة "صادق" وعلى هذا الأساس فإن: نظرية التطابق: تقول إن كلمة "صادق" تعني "الاتساق مع الوقائع. في حين تقول أن نظرية الاتساق كلمة "صادق" تعني "الاتساق مع مجموعة العبارات المقبولة".

فصدق الفكرة أو كذبها يظهر من خلال علاقتها بالعالم الخارجي، وهي بذلك تتعارض مع نظرية الاتساق، التي ترى أن صدق قضية ما أو كذبها يتوقف على علاقتها مع القضايا بدلاً من علاقتها مع العالم الخارجي (أكريل، 1970، ص 278).

فقد ابتدع العقل الوضعي بعض المعايير التي يمكن على هداها التحقق من سلامة الفكرة، وكان أبرزها نظرية التطابق، التي قال بها أرسطو ومن تبعه من الفلاسفة ويراد به مطابقة الحكم للموضوع الخارجي. ثم معيار الاتساق أو عدم التناقض ويستخدم في الاستدلال على صحة قضية بالاستنباط. ثم مقياس الترابط الذي يقول به المثاليون، ويراد به أن يكون الحكم مترابطاً مع مجموع الأحكام المعروفة ثم على صدقها، حتى يستحيل أن تكون مثاراً للشك. وأبرز من قال به ديكارت، وجون لوك، ثم مقياس التحقق من مضمون العبارات بالرجوع إلى الخبرة الحسية، وقال به أتباع الوضعية المنطقية المعاصرة (السماسيري، 2016، ص 547).

نظرية التطابق أو التوافق بين الحكم والشيء (مطابقة ما في الأذهان لما في الأعيان) حسب تعبير الفلسفة الإسلامية العربية فميز الفلاسفة بين نوعين من الحقيقة (ديورانت، 1945، ص 181):

1) الحقيقة العقلية أو الصورية: والتي تقوم على أساس عدم تناقض الأقوال والقضايا، بحيث لا يتطلب التحقُّق من

صدقيتها إلا مراعاة التناسق الداخلي في القضية أو الحكم.

2) الحقيقة التجريبية: التي يتطلَّب التحقُّق من صدقها مراعاة الواقع الخارجي للتأكُّد من مطابقة القضايا للواقع.

ومن ثم مقياس النفع في الحياة العملية، ويعد جيمس أشد تمثيلاً لهذا الاتجاه، – كما أسلفنا الذكر – وهنا يتوجب علينا توضيح مفهوم التطابق والاتساق لديه.

عرف جيمس التطابق بأنه التحقيق التجريبي، وعني به جيمس الوصول إلى الموضوع عن طريق سلسلة متصلة من التجارب الجزئية، تصل بين الفكرة، وموضوعها (زيدان، 2005، ص 63).

وبما أن فلسفة جيمس فلسفة واقعية في المعرفة فهو يزيد أكثر وضوحاً في نظرية التطابق فيقول في نقاط:

1) يجب أن تطابق الخبرة – عقلية أو إدراكية – الواقع حتى توصف بأنها خبرة حقيقة أو صحيحة (جيمس، 2008، ص 83).

2) لا يعني المذهب الإنساني "بالواقع" شيئاً غير الخبرات العقلية والمدركات الحسية التي تجد أي خبرة حاضرة نفسها مختلطة بها في الواقع.

3) يعني المذهب الإنساني "بالتطابق" إيجاد طريقة تحقق نتيجة مرضية عملياً وفكرياً.

4) لا تقبل كلمتا "الرضا" و"الاهتمام" أي تحديد ما دامت تعددت الطرق التي يتم بها تحقيقها عملياً، ولكي يصبح محققاً للرضا أو مقبولاً يجب ألا يتعارض مع اي حقائق أخرى نسعى للحفاظ عليها (جيمس، 2008، ص 84).

حيث يرى جيمس أن الصدق، هو مطابقة الفكرة للواقع بذلك أراد تحديد معنى المطابقة، فجعل من الفكرة المتمثلة هي تلك التي أحدثت تكيف بيني وبين الواقع، وشعوري بالارتياح لها والاقتناع بها، أهم شيء وألا أحس بتضارب أو تناقض بينها وبين معارفي السابقة (زيدان، 2005، ص 67).

أما الاتساق فيقول جيمس: "ليس المقصود بالطبع الاتساق بين الواقع المطلق والعقل الذي يمثله، وإنما المقصود الاتساق الذي يتم الشعور به بين الأحكام والموضوعات من جهة، وعادات ردود الأفعال في العقل القائم بملاحظة العالم من جهة أخرى. السؤال الآن: ألا يتم إدراك حاجتنا إلى مثل هذا الاتساق وسعادتنا بتحقيقه باعتبارها نتائج لوضعنا الطبيعي" (جيمس، 2008، ص 82).

يرى جيمس أننا كائنات تطوُّر العادات العقلية أي العادات التي تثبت فائدتها في البيئة التي تتكرر فيها نفس الموضوعات وتخضع إلى قانون فإذا كان الأمر هكذا فإن ما يحدث أولاً هو المزايا والمكاسب. ففي البداية يكون التصوُّر حقيقياً إذا ما كان قابلاً للتطبيق، وبعد ذلك، وحين أصبحت ردود الأفعال منظمة أصبحت هذه الردود ذاتها حقيقة حين تحقق ما يتم توقعه منها وإلا باتت كاذبة (جيمس، 2008، ص 82).

فالتطابق بين الحكم والشيء، في ظاهرة حق لا غبار عليه، ذلك لأن المتبع عند جميع الناس في معاملاتهم كلها هو أنهم يأخذون هذا الحكم ويطبقونه على الواقع فإذا انطبق كان حقاً وإن لم ينطبق كان باطلاً، نقول مثلاً: أن طول هذه الغرفة سبعة أمتار، وهذا حكم يصح أن يكون حقاً، ويصح أن يكون باطلاً، هو حق إن انطبق على حقيقة الحجرة، ولكي نبرهن عليه نأخذ مقياساً طوله سبعة أمتار، ونطبقه على جدار الحجرة، فإن انطبق أصبح حقاً لا يماري فيه، ولا يجوز لأحد أن يرفضه (فام، 1998، ص 217). لكن السؤال هنا أن هذا التطابق لا ينطبق على جميع الحالات.

ولنضرب مثال على هذه المشكلة الصعبة، وهو فكرتي عن الكهرباء، توجد لدى فكرة عن الكهرباء، هذه الفكرة وهذا الرأي قد يكون صواباً وقد يكون خطأ، كيف يمكننا معرفة خطأ وصواب؟ كيف أتحقق من صواب حكمي؟ كيف أطبق هذا الرأي على الحقيقة، ثم كيف أضعهما بجانب بعضهما؟ وكيف أرى هذا التطابق بينهما؟ (فام، 1998، ص 231).

بالنسبة للفلسفة التقليدية فهي تجد مخرجاً لهذا السؤال وهو معرفة الأشياء والحقائق بطريقة مباشرة، فهناك صورة عن عقلي تنطبق على غير الواقع كل الانطباق.

أما البراجماتية تقبل نظرية الانطباق بين الرأي والحقيقة، بين الفكرة والشيء، إذا كان يستطاع التأكد من هذا الانطباق، وهي تزعم أن هذا إذا تم يدل على أن الرأي والحقيقة يتقاربان بعضهما من بعض، إذاً فالانطباق بين الأشياء والرأي لا يضير البراجماتية، ولا مانع عندها من قبوله إذا أمكن تحقيقه (فام، 1998، ص 239).

لكنها لا توافق على أن قانون السببية هو حالة من حالات المعرفة، وإنما هو حالة من حالات الاختبار، أي حالات العمل

والنشاط في البيئة، ليس هناك حق مطلق موجود في الكون يعلن نفسه لعقل الإنسان، وإنما هنالك اختبار يجوزه الإنسان (فام، 1998، ص 240)، بحسب اعتقاد البراجماتية.

ومن الملاحظ أن كل من يقرأ نظرية جيمس قد يتوهم أنه من أتباع المطابقة، لأنه يستخدم لفظ المطابقة كثيراً. فنقول: إن صدق الفكرة هو مطابقتها للواقع، وكذبها عدم مطابقتها له. كما يضيف أيضاً يجب أن تكون المطابقة محسوسة أي يجب أن تشير الأفكار إلى الواقع. ولكنها في واقع الأمر مخالفة لنظرية المطابقة التقليدية بل وثورة عليها، ومقياس ذلك يقول جيمس: "ترى النظريات الشائعة في المعرفة أن الصدق مطابقة للواقع وهي قضية مبهمة" (جيمس، 2008، ص 75).

يوضح لنا جيمس نظرية التطابق فيقول: "إن المقصود بالمطابقة بالمعنى الدارج أن الأفكار يجب أن تصور الواقع وتشابه العارف والمعروف، وتعد القضايا صادقة إذا تطابقت الفكر الأبدي، وتعد الحدود صحيحة إذا صورت وكانت نسخاً لوقائع خارج العقل" (جيمس، 2008، ص 81).

وهنا يقصد جيمس بأن الصدق لا يكون في المطابقة وإنما في إخراج ما هو جديد وذلك من خلال إعمال العقل.

فقد ثار جيمس على نظرية المطابقة من خلال نظرة أصحابها لطبيعة العقل فاتباع المطابقة يروا أن العقل مرآة تنعكس فيها صورة مشابهة للواقع، وأن العقل منفعل لا نشاط له. مستقبل فقط للانطباعات، ويعكسها في صورة أفكار (زيدان، 2005، ص 80).

وهذا ما يرفضه جيمس وربما تأثير علم النفس عليه يظهر لنا هنا، فقد وصل في أبحاثه السيكولوجية إلى أن العقل خصب وله فاعليته ونشاطه ودوره في الإدراك، ويتضح موقفه من التطابق أكثر فهو أشد من عارض وجود حقيقة قبل الإنسان مستقلة عنه، وأكد على أن الصدق لا يجدي للفكرة إلا بتفعيل العقل واستخدامه للأشياء.

خلاصة القول أن التطابق لدى جيمس هو إيجاد طريقة تحقق نتيجة مرضية عملياً وفكرياً، فتمثل الحقيقة التي تجسّدها الخبرة المطابقة إضافة إيجابية إلى الوقائع السابقة عليها، وربما يجب على الأحكام التي بعدها أن تتطابق معها. لذا تعد صادقة مسبقاً أو على الأقل بالقوة، وتعني الحقيقة الفعلية أو بالقوة عملياً أو وفق المنهج البراجماتي شيئاً واحداً أو نفس الشيء أي إمكانية وجود إجابة واحدة حين يتم طرح السؤال (جيمس، 2008، ص 84).

ينتقل جيمس من نظرية التطابق إلى نظرية الاتساق فهو لم ينسَ جيمس أن يستعيد فضائل نظرية الاتساق لنفسه فأخذ منها فكرة اتساق الفكرة مع غيرها من الافكار، وعدم معارضتها لها، واتساقها مع المعارف الماضية، والتجارب السابقة التي يؤمن الإنسان بصدقها، ثم اتساقها مع التجربة الإنسانية الاجتماعية التي يطلق عليها تقاليد الفهم المشترك (زيدان، 2005، ص 80).

ومؤدى هذه النظرية أن القضية تكون صحيحة إذا ما جاءت متسقة مع الحقائق التي سبق أن سلمنا بها، والقضايا التي قبلناها من قبل وسلمنا بصحتها. فلو قلت عبارة غير متسقة مع ما سلمت به، كانت كاذبة، وإذا جاءت متسقة مع هذا الرأي الذي قبلته وسلمت به كانت صادقة. وخير مثال لهذا النوع من الصدق، هو ما نجده في الرياضيات، والمنطق (ميد، 1975، ص 154).

إلا أن الصدق هنا لا يعبّر عن صدق واقعي بالضرورة؛ لأن كل ما يمكن أن يكون لدينا مجرد اتساق منطقي، لا تربطه علاقة ضرورية بالواقع، وبالعالم الموضوعي؛ ولذلك فإن هذا المعيار لا يقدّم لنا شيئاً عن طبيعة الحقيقة أو القضية الصادقة (رشوان، 2012، ص 63).

ولهذا جاءت البراجماتية لتقدم لنا معيار آخر للحقيقة أو لصحة الفكرة، وهو أن المعتقد يقوم على ربط الفكرة بنتائجها التي تترتّب عليها، ومدى ما يكون لها من طابع عملي.

فقد أخذ جيمس مبدأ الاتساق ووسع فيه، وأنكر منه استناده إلى ميتافيزيقا معينة، وهو يسلح نفسه بميتافيزيقا تناقضها أقصد القول، بأن الأساس الذي تستند إليه نظرية الاتساق هو ميتافيزيقا الوحدة المطلقة، وأقام جيمس ما يعارضها وهو المذهب التعددي (زيدان، 2005، ص 80).

معيار الحقيقة

يرى جيمس أن النظرة البراجماتية لعلاقة الحقيقة هي: "أن لها محتوى محدداً، وأن كل شيء فيها اختياري قابل للممارسة وطبيعتها برمتها يمكن أن تعرف، وتوصف، وتفسر في ألفاظ وحدود وشروط إيجابية وضعية"(جيمس، 1965، ص 367).

وذلك يتم عن طريق: "الاستخدامية التي يجب أن تحوزها الأفكار لكي تكون حقيقية تعني أشغالاً معينة بالذات، مادية أو فكرية، واقعية أو ممكنة، في وسعها أن تحدثها، وتنشئها، وتخرجها من الأقرب إلى الأقرب في داخل الخبرة المحسوسة

الملموسة" (جيمس، 1965، ص 360).

مما سبق يوضح لنا جيمس أن الحقيقة لديه تقوم بتشغيل الأفكار واستخدامها، وهو في هذا الاتجاه يفتح أبصارنا أكثر على التجربة فإذا أجازت التجربة الفكرة، فلا يوجد إذاً ما يستحق الشك والنزاع.

يقول جيمس أن المعتقدات التي يقوم عليها الدليل بطريقة ملموسة محسوسة على يد شخص ما، هي الدعائم التي يقوم فوقها البناء كله (جيمس، 1965، ص 246).

فلم يكن الصدق وحده منهج للفلسفة البراجماتية؛ وإنما كانت هناك نظرية أخرى، هي نظرية التجريبية المتطرفة كما أسماها، فهو يرى: "إن صدق الفكرة يعني نتائجها فقط أو ما قد يؤدي من الناحية النفسية إلى مثل هذه النتائج، ولا يتعلق حينئذ بموضوعها أو بأمر ينبثق من داخلها لا تستطيع التجربة وصفه أو تفسيره" (جيمس، 2008، ص 77).

وهذا تأكيد آخر لجيمس على أن معيار الحقيقة هو مدى منفعته للإنسان فهي بدون أهمية أو فائدة إن لم تكن بخدمة الإنسان، بناءً على ما سبق، فإن معيار صدق الفكرة من عدمه هو النتائج العملية المرتبطة بالإنسان ومتطلباته.

يقول جيمس: "إن الفارق العملي الذي يحدث لنا إذا كانت لدينا أفكاراً حقيقية... فالفكرة تصبح حقيقة وتجعلها الأحداث كذلك... وصدقها هو في واقع الأمر سبيل إثباتها لنفسها، وسبيل برهنتها. فصدقها أو مشروعيتها هو سبيل ترسيخها وتصحيحها" (جيمس، 1965، ص 303).

فإن جيمس يعد كل ما تقوم عليه التجربة هو حقيقي واقعي (الشنيطي، 1975، ص 92)، وهذه التجربة لا تجري بشكل اعتيادي، وإنما تمليها مصالحنا وغاياتنا وربما مزاج المدرك كذلك (صليبا، 1982، ص 204)

فمقياس الفكرة ليس الحق، وإنما مقياسها أو معيارها هو في نفعها وفائدتها وفيما وضعت له، ولا يجب أن نقيس الأفكار في فراغ، نقيسها بعيداً عن الحياة والاختيار، أو نقيسها إلى شيء جامد لا حياة فيه، وإنما يجب أن نطبقها في هذه الحياة الآن، فإذا صلحت وأدت إلى الغاية التي وضعت لها فهي حق دون نزاع (فام، 1998، ص 247).

إذاً فالحق لدى جيمس متغيّر ومتطوّر وغير ثابت – كما ذكرنا سابقاً – وبالتالي فهو يجعل من الحق فكرة كغيرها تحتاج إلى أن نتحقق منها، والصدق ليس صفة ملازمة لها.

إن معيار صدق الحقيقة لديه النتائج العملية التي تترتب عليه، وذلك انطلاقاً من منهجه التجريبي الذي اصطبغت به فلسفة في نظرتها إلى الحقيقة مما جعله ينظر إلى الحقيقة على أنها "ضرباً من التحقق" شأنها في ذلك شأن العلوم التي تبدأ من فروض، ولا يتم التأكد من صحة فرض من الفروض بمعزل عن الوقائع الملاحظة (عبدالحفيظ، 2006، ص 126).

وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى سائر تصوراتنا ومفهوماتنا، فإنه لا بُدَّ من أن تخضعها لحكم التجربة، حتى نتحقق من صحتها علمياً، فإذا ما طبقنا على معاني وتصورات وأفكار هذا المنهج التجريبي، كان في استطاعتنا أن نميّز بين القضايا الصحيحة والقضايا الكاذبة (إبراهيم، 1968، ص 35).

يقول جيمس: "أن الصدق يحدث للفكرة، أي تصبح صادقة بفعل الحوادث. ليس صدقها في الحقيقة إلا عملية إثبات صدقها أو إثبات تحققها، ولا تستمد صلاحيتها إلا من عملية تأكيد هذه الصلاحية" (جيمس، 2008، ص 17).

قرَّر وليم جيمس أن معيار الحقيقة ليس الحكم العقلي، وإنما هو السلوك العملي النافع المترتَّب عليه، وهو في هذا الأمر يميِّز بين نوعين من الصدق في القضايا:

1) صدق قائم على مدى تطابق القضية مع الواقع الخارجي، فتكون في حالة التطابق صحيحة، وغير ذلك كاذبة.

2) صدق آخر قائم على السعي لامتلاك الحقيقة نفسها، والاستفادة منها عملياً (سماح، 1973، ص 57).

حيث تكون القضية صادقة والفكرة صحيحة إذا أدَّت إلى نتائج عملية نافعة تفيد الفرد في حياته، وتصبح الحقيقة كامنة فيما سوف تؤدي إليه من أعمال، وليس في طبيعتها المجردة (سماح، 1973، ص 58).

فالأساس الوحيد الذي بمقتضاه نميّز صدق الأفكار أو صحة المعاني، إنما هو الفارق الذي يترتّب عليها في مجال العمل أو التطبيق. وبهذا المعنى يكون معيار الحقيقة عملياً صرفاً، كما تفسّر المعرفة نفسها على أنها ردُّ الفعل الذي يقوم به العقل لمواجهة حاجات الحياة العملية (إبراهيم، 1968، ص 33).

فليس معيار الحقيقة هو مطابقة الواقع – كما أسلفنا الذكر – بل قيمة الفكرة، وما يترتّب على التسليم بها من نتائج عملية،

ما دام المعنى الوحيد للفكرة، إنما هو ذلك المعنى العملي.

والمقصود هنا بالطبع المفيد في كل مجال، وبكل صورة وعلى المدى الطويل؛ فقد لا تتحقق الخبرات المستقبلية نفس الفائدة التي تحققها الخبرات الحاضرة الآن. ونعرف جميعاً كيف تتعدد الطرق التي تتفجر بها الخبرة؟ وكيف تتغيّر أساليبها، وتجعلنا ننضج أفكارنا، ونغيرها؟ (جيمس، 2008، ص 18).

خلاصة ما سبق يتبين لنا أن مناهج البحث العلمي المصدر الرئيسي للبراجماتية – على حد تعبير هنترميد – ذلك لأن العلم من حيث نظرته إلى الحقيقة هو براجماتي بطبعه. فبعد أن يسوغ العالم غرضه لتفسير الوقائع المراد بحثها، يكون المعيار المألوف الذي يتخذه وسيلة للتحقق من ذلك الغرض هو تصميم تجربة تؤدي إلى نتيجة قاطعة (بنعم أو لا)، وفي استطاعة الباحث أن يتنبأ بالنتائج التي يتوقع من التجربة أن تسفر عنها (إذا كان الغرض صحيحاً)، وهكذا فعندما تجرى التجارب ويوجه السؤال إلى الطبيعة، ويرغمها على الإجابة، تكون حقيقة الغرض متوقفة تماماً على كونه مؤدياً إلى نتائج (ميد، 1975، ص 163).

إذاً فالمعيار الذي يقلّل من هذه النظرية يكون هو معيار النجاح العملي الأوحد، وهو الذي يتحكم بذاته في تحديد ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي. وصلنا الآن إلى جوهر هذه الفلسفة، ومحور تفكيرها بعد أن كشفنا عن نظرية جيمس في الحقيقة، والتي تعد أهم ما ساهمت به البراجماتية في الفكر الفلسفي.

الخاتمـة

تناولنا في هذا البحث الحقيقة لدى وليم جيمس، وخلصنا إلى أن الحقيقة لديه تختلف قلباً وقالباً مع التصور التقليدي للحقيقة، ولا سيما المذهب العقلي، الذي يذهب إلى أن الحقيقة كاملة وثابتة منذ الأزل.

كما وجدنا أن نزعته التجريبية التي أدخلها على الحقيقة نسبية وليست مطلقة حتى أن مدى صدقها من عدمه راجعاً إلى التحقق منها على أساس نتائجها العملية على أرض الواقع.

كذلك وجدنا أن جيمس قد فتح مجال للفردانية في فلسفته حتى أصبحت سمة من السمات التي التصقت بها فلسفته الخاصة، أما الفكرة فلا تنفصل عن طريق تحقيقها حيث نجد أن الحق لديه هو التحقق.

فالحقيقة لا تظهر ولا تتضح لنا إلا من خلال إخضاعها للتجربة التي لها أهمية في البحث لا يمكن إهمالها. فجيمس يؤمن بأن الحقيقة، ومصادرها موجودة في عالمنا الحسي الذي نحيا فيه، فنستدل على القيم عن طريق الحواس، لأنها صدرت عن الواقع الحسي، ولذلك فهي متغيرة ونسبية.

ولعل هذا ما وجه أصابع الاتهام للحقيقة البراجماتية التي أوكلت الحق للحواس المتغيرة، وجعلت من الحقيقة نسبية متغيرة، وسلبتها صفة الثبات والموضوعية.

نتائج البحث:

1) اختلفت نظرة جيمس للحقيقة فقد رفض الحقيقة في الفلسفات التقليدية، التي تهتم بأصل الفكرة وبكيفية صدورها.

2) كان اهتمام جيمس منصب على النتائج والمنافع التي تعود على الإنسان من وراء الأفكار، فمدى صدق الفكرة متوقف على مدى منفعتها على أرض الواقع.

3) جعل جيمس الحقيقة وسيلة لإشباع مصالح الفرد، وغاياته فالفكرة هي علاقة بين العارف والمعروف مستقلة بذاتها.

4) يتفق جميع فلاسفة البراجمايتة على أن حقيقة الأفكار هي مدى مطابقتها للواقع، أما اختلاف جيمس فقد جاء من خلال وضعه الفلسفة في متناول الإنسان، وذلك عن طريق التجربة، فالحقيقة تكتسبها الفكرة بعد التجربة التي يخضوها الفرد.

إذاً فالفرد في فلسفة جيمس هو صاحب الإرادة المستقلة، وهو من يمتلك الحقيقة.

التوصيات:

- كان اهتمام جيمس منصب على: الذات الإنسانية، والخبرة الذاتية. كما يعد تناوله لحلول جديدة، تواجه مشكلات جديدة، أمر جدير بالاهتمام في عالمنا المعاصر.
- تركيز جيمس على أن منطق الواقع أكثر غزارة من منطق العقل، كل هذا يحتاج إلى دراسات عميقة عن وليم جيمس، لأجل التوسع أكثر في فلسفته الخاصة التي أدَّت إلى شهرة الفلسفة البراجماتية في أمريكا والعالم الآخر.

المصادر والمراجع

المراجع العربية

إبراهيم، زكريا (1968)، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ط1، القاهرة: دار مصر للطباعة.

أكريل، أكتون وآخرون، (1970)، الموسوعة الفلسفية المختصرة، ت: فؤاد كامل، وجلال العشري، وعبدالرشيد صادق، بيروت: دار القلم.

بدوي، عبد الرحمن (1979)، أفلاطون، ط1، بيروت: دار القلم.

بدوي، عبد الرحمن، (1977)، إيمانويل كانط، ط1، الكويت: وكالة المطبوعات.

جديدي، محمد (2010)، ما بعد الفلسفة، ط1، الجزائر: منشورات الاختلاف.

ديورانت، ول (1945)، مباهج الفلسفة، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، ط2، القاهرة: المركز القومي للترجمة.

راسل، برتراند (1977)، تاريخ الفلسفة الغربية، ط1، ترجمة: فتحي الشنيطي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

رايت، وليم كلي (2010)، تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة: محمد سيد أحمد، ط1، بيروت: التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.

رشوان، محمد مهران ومدين، محمد (2012)، الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ط1، عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع.

سبيلا، محمد والعالي، عبد السلام (2009)، الحداثة الفلسفية، ط1، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

ستيس، ولتر، (1998)، الدين والعقل الحديث، ط1، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة: مكتبة مدبولي.

سماح، رافع (1973)، المذاهب الفلسفية المعاصرة، ط1، القاهرة: مكتبة مدبولي.

السمايسري، محمود يوسف (2016)، نظرية الخطاب (الفكر) الإسلامي، بيروت: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع.

الشنيطي، محمد فتحي (1956)، المعرفة، ط1، القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة.

عبد الغفور، ياسمين (2014)، تأملات نفسية فكرية، ط1، عمان: دائرة المكتبة الوطنية.

عبدالحفيظ، محمد (2006)، الفلسفة والنزعة الإنسانية (الفكر البراجماتي نموذجاً)، ط1، الإسكندرية: دار الوفاء للنشر والطباعة.

فال، جان (1997)، طريق الفيلسوف، ط1، ترجمة: أحمد حمدي محمود، القاهرة: مؤسسة سجل العرب.

ليبنتز، جوتفريد (1978)، المونادولوجيا، ترجمة عبد القادر مكاوي، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر.

محمد، علي عبد المعطي، (1997)، أعلام الفلسفة الحديثة، ج1، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

مشروحي، الذهبي (2004)، النزعة البراجماتية الجديدة عند رورتي، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب.

ميد، هنتر (1975)، الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، ترجمة: فؤاد زكريا، ط1، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

Pragmatic "Truth" in the Philosophy of William James

Sltana Frahat Saad Mohmmad *

ABSTRACT

William James proceeded in the same pragmatic way to discuss topics such as, truth, utility, practical results, and other issues, where James Pragmatism is an experimental trend that is concerned with sense data and tangible results, it also rejects fixed, absolute principles. His philosophy is not closed to give final results on nature.

James' philosophy is a rejection of idealism, and his thinking departed from priorities and ideals to results and ends. He founded a practical doctrine based on the idea of change and pluralism. But what determines the meaning of the truth is its consequences. That is truth is the only thing useful in our thinking and it is the right of our behavior.

This study aims to examine the theory of pragmatic truth of James, which is one of the most important and famous theories in the contemporary philosophy because of its compatibility with the American way of life, and economic transformations in contemporary societies. This research aims at revealing the nature of James, understanding of pragmatism and the theory of truth, and what distinguishes him from other pragmatists.

Keywords: Theory of Truth, Pragmatic Philosophy, Meaning of Truth, Theory of Honesty.

* Phd Candidate, Department of Philosophy, Faculty of Arts, University of Jordan.
Received on 14/12/2017 and Accepted for Publication on 3/4/2018.